



MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN NAHAR
Date : 9.9.93
Photo No. : 142

تحضيراً لمعركة السلام

اكثر ما يحزّ في النفس في لحظة التحول الذي نعيش انها ما زالت عاصية على الادراك، يغلب فيها الانفعال ونزعة تصفية الحسابات على التفكير الواعي. ولا عجب في ذلك. ف"الدوخة" التي يشعر بها كل عربي كان لا مفر منها، ايا تكن مضامين الاتفاقات المزموع عقدها. وكان لا بد من الانفعال. وكان لا بد من الشماتة ايضا. لكن حسينا ان استيعاب الصدمة بدأ، وان يكن محتما على الفكر ان يظل يلهث وراء السياسة ولو الى حين. لذلك، وجب تكرار المسلمات التي من شأنها تأخير فهمنا للمرحلة المقبلة.

والمسلمات المهمة اثنتان: الاولى براغماتية، مفادها ان ما تمّ الاتفاق عليه فلسطينيا، وما سيتمّ غدا الاتفاق عليه سوريا ولبنانيا، محكوم بالاطار الضيق الذي حدد في مدريد، وهو اطار محكوم بدوره بخلل هائل في ميزان القوى، بعد عقدين وتيف من تراجع عربي مضطرب "تكلل" في هزيمة الخليج وفاقم آثاره اضعافا انميار الحليف السوفياتي. واذا اخذنا هذه المسلمة في الاعتبار، تبين لنا ان الاتفاق الفلسطيني - الاسرائيلي هو اقصى ما كان يمكن ان تعطيه عملية مدريد، بل انه شكل خرقا عربيا لها في نقطتين: الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية والانسحاب الفعلي من غزة واريحا. طبعا، تم دفع ثم باهظ مقابل هذا الخرق، من خلال وضع اسم للاحاق الكيان الفلسطيني الناشئ بالمجال الاقتصادي والاستراتيجي الاسرائيلي في وجه العرب الآخرين. ولكن ألم يكن هذا اللاحاق واردا منذ اللحظة الاولى في فلسفة مدريد؟ ألم نسمع الرئيس الاميركي السابق جورج بوش يحدد لنا في خطاب الافتتاح معالم الشرق الاوسط كما يريده، حاضنا سيطرة اسرائيلية مستديمة؟ ألم يكن متوقعا ان يصير الاسرائيليون على تلغيم النصوص قيد التفاوض بضوابط في هذا الاتجاه؟

لا يراد بهذه التساؤلات الدعوة الى القنوط. بالعكس، فالمعركة لم تنته، وإن اعترفنا بالمزيمه. وهنا اهمية المسلمة الثانية، وهي ذات طبيعة تاريخية، مؤداها أننا عندما نستسلم للواقع، لا نحول العدو صديقاً. بالتأكيد، تستمد اسرائيل من الضوابط المشار اليها قوة في ولوجها معركة السلام، وقد تراهن عليها لبناء شبكة مصالح جديدة مع بعض قطاعات المجتمعات العربية، بدءاً بالمجتمع الفلسطيني. الا ان معيار المصلحة المادية لم يكن يوماً، في العلوم السياسية، المعيار الوحيد لتحديد العدو والصديق. كما ان الاقتصاد لا يبني وحده الامبراطوريات. ولنا في فشل القراءة السوفياتية للماركسية، المفردة في اقتصاديتها، اكبر دليل على ذلك. فاذا كانت المشاعر القومية قد عادت الى تحريك الشعوب السوفياتية السابقة، فكيف بشعور الانتماد العربي المنجذر في الارض واللغة والثقافة والحياة الاجتماعية؟

نعلم طبعاً ان قصور هذا الانتماء في ان يترجم بالسياسة كان وراء المزيمه، وان المراهنة عليه وحده ستكون ضرباً من السذاجة. الا انه لا يجب ان نستخف به في اللحظة التي تأتي الارادة الاميركية - الاسرائيلية وهنا المفارقة الكبرى، لتخفف من وطأة حدود الدولة القطرية.

لن ينقلب اذاً العدو الى صديق، حتى لو فرض علينا توقيع معاهدات صداقة. وهو، في اي حال، يعرف ذلك، خلافاً لبعضنا، وسيظل يخوض تجربة السلام بصفتها معركة يريد منها استكمال معارك الحرب. وهو بالفعل يملك في هذه المعركة اوراقاً كثيرة.

اما نحن، فبيدينا اننا سنبقى نحتاج الى العديد من عناصر القوة، سواء في السياسة او الاقتصاد او الحياة المؤسساتية. ولعل اكثر ما نحتاج اليه هو تحديد فهمنا الخاص لهذا العدو. ففي الوقت الذي ندخل المعركة، يجب قبل كل شيء، ان نحدد هدفنا منها، في اطار تحديدنا الجديد/ القديم لانتمائنا.

سمير قصير